أهداف سورة الأحقاف

محمود فؤاد

للدكتور عبد الله محمود شحاته

سورة الأحقاف سورة مكية ، وآياتها ٣٥ آية ، نزلت بعد الجاثية .

سورة الإيمـــان والتوحيـــد

تعرض سورة الأحقاف قضية الإيمان بوحدانية الله ، وربوبيته المطلقة لهذا الوجود ومن فيه وما فيه . والإيمان بالوحي والرسالة ، والإيمان بالبعث ومـــا وراءه من حساب وجزاء على ما كان في الحياة الدنيا من عمل وكسب ومن إحسان وإساءة .

هذه الأسس الأولى التي يقيم عليها الإسلام بناءه كله ، ومن ثم عالجها القرآن في كل سوره المكية علاجا أساسيا . وظل يتكىء عليهـــا كذلك في سوره المدينة كلما هم بتوجيه أو تشريع للحياة بعد قيام الجماعة المسلمة والدولة الإسلامية ، ذلك أن طبيعة هذا الدين تجعل قضية الإيمان بوحدانية الله سبحانه ، وبعثـــة محمد — صلى الله عليه وسلم — والإيمان بالآخرة وما فيها من جزاء .. هي المحور الذي تدور عليه آدابه ونظمه وشرائعه كلها ، وترتبط به أوثق ارتباط ، فتبقى حية حارة تنبعث من التأثير الدائم بذلك الإيمان .

وتسلك السورة بهذه القضية إلى القلوب كل سبيل ، وتوقع فيها على كل وتر ، وتعرضها في مجالات شتى ، مصحوبة بمؤثرات كونية ونفسية وتاريخية ، كما أنها تجعلها قضية الوجود كله — لا قضية البشر وحدهم — فتذكر طرفا من قصة الجن مع هذا القرآن ، كما تذكر موقف بعض بني إسرائيل منه ، وتقيـــم من الفطرة الصادقة شاهدا ، كما تقيم من بعض بني إسرائيل شاهدا سواء بســـواء .

ثم هي تطوف بتلك القلوب في آفاق السموات والأرض ، وفي مشاهد القيامة في الآخرة ، كما تطوف بهم في مصرع قوم هود ، وفي مصارع القرى حول مكـــة ، وتجعل من السموات والأرض كتبا تنطق بالحق ، كما ينطق هذا القـــرآن بالحق علـــى السواء .

أربعـــة مقاطـــع

تشتمل سورة الأحقاف على أربعة عناصر متماسكة كأنها عنصر واحد ذو أربعة مقاطـــع :

١ ـ نقاش المشركـــين

يبدا المقطع الأول بالحرفين « حا . ميم » . وهي بداية تكررت في ست سور سابقة تسمى بالحواميم . وهي : سورة غافر ، وفصلـــت ، والشورى ، والزخرف ،والدخان ، والجاثية ، والسورة السابعة هي الأحقاف .
وتلحظ أن هذه السور السبع تبدأ بالحرفين حا . ميم ، ثم تعقب بذكر الكتاب ، مما يؤيد أن هذه الأحرف نزلت على سبيل التحدي لأهل مكة أن يأتوا بمثل هذا القـــرآن .

وتشير سورة الأحقاف في بدايتها إلى القرآن فتقول : **﴿ تنزيل الكتاب من الله العزيز الحكيم ﴾** الأحقاف / ٢ . وعقبها مباشرة الاشارة إلى كتاب الكون وقيامه على الحق وعلى التقدير والتدبير : **﴿ ما خلقنا السموات والأرض وما بينهما إلا بالحق وأجل مسمى ﴾** الاحقاف / ٣ فيتوافى كتاب القرآن المتلو ، وكتاب الكون المنظور على الحق والتقدير .

وبعد هذا الافتتاح القوي الجامع يأخذ في عرض قضية العقيدة مبتدئا بإنكـــار ما كان عليه القوم من الشرك الذي لا يقوم على أساس من واقع الكون ، ولا يستند إلى حق من القول ولا مأثور من العلم . ويعرض بعد هذا سوء استقبالهم للحق الذي جاءهم به محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم : **﴿ واذا تتلـى عليهم آياتنا بينات قال الذين كفروا للحق لما جاءهم هذا سحـــر مبـــين ﴾** الأحقاف / ٧ .

ثم يسوق إنكارهم للحق وتطاولهم على الوحي ، واتهامهم النبي بالكـــذب والافتراء . ويرد عليهم بأن الأمر أجل من مقولاتهم الهازلة ، وادعاءاتهم العابثة . إذ هو أمر الله العليم الخبير ، يشهد ويقضي ، وفي شهادته وقضائه الكفاية : **﴿ أم يقولون أفتراه قل إن افتريته فلا تملكون لي من الله شيئا هو أعلم بمـــا تفيضون فيه كفى به شهيدا بيني وبينكم وهو الغفور الرحيـــم ﴾** الاحقاف / ٨ .

ثم يبين أن محمدا ليس بدعا من الرسل فقد سبقه رسل كثيرون ، فهـــو مبلغ عن الله وملتزم بوحي السماء . ويسوق حجة أخرى على صدق رسالته ، تتمثل في موقف بعض من اهتدى للحق من بني إسرائيل ، حينما رأي في القـــرآن مصداق ما يعرف من كتاب موسى عليه السلام . ويستطرد في عرض تعلاتهم ومعاذيرهم الواهية على هذا الاصرار ، وهم يقولون عن المؤمنين : **﴿ لو كـــان خيرا ما سبقونا إليه ﴾** الاحقاف / ١١ . .

ويشير إلى كتاب موسى من قبله ، وإلى تصديق هذا القرآن له ، وإلـــى وظيفته ومهمته : **﴿ ومن قبله كتاب موسى إماما ورحمة وهذا كتاب مصدق لسانا عربيا لينذر الذين ظلموا وبشرى للمحسنين ﴾**الأحقاف / ١٢

وفي نهاية المقطع الأول يصور لهم جزاء المحسنين ، ويفسر لهم هذه البشرى التي يحملها إليهم القرآن الكريم بشرطها ، وهو الاعتراف بربوبية الله وحـــده

والاستقامة على هذا الاعتقاد ومقتضياته : **(إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون)** الاحقاف / ١٣ ، فقد آمنوا بالله واعلنوا ذلك واستقاموا على منهج الايمان ، فاستحقوا حياة كريمة في الدنيا ، ونعيما خالدا في الأخرى .

٢ ــ الفطرة السليمة والفطرة السقيمة

يحتوي المقطع الثاني على ست آيات هي الآيات ١٥ ــ ٢٠ ، وفيها حديث عن الفطرة في استقامتها وفي انحرافها ، وفيما تنتهي إليه حين تستقيم وما تنتهي إليه حين تنحــرف .

ويبدأ بالوصية بالوالدين ، وكثيرا ما ترد الوصية بالوالدين لاحقة للكلام عن العقيدة ، لبيان اهمية الاسرة والعمل على ترابطها ، وتذكير الانسان بأصــل نعمته ورعايتــه .

وتذكرنا الآيات بجهود الام وفضلها في الحمل والولادة والرضاع .

« إن البويضة بمجرد تلقيحها بالخلية المنوية ، تسعى للالتصاق بجدار الرحم ، وهي مزودة بخاصية اكالة ، تمزق جدار الرحم الذي تلتصق به وتأكله ، فيتوارد دم الام إلى موضعها ، حيث تسبح هذه البويضة دائما في بركــة مــن دم الام الغني بكل ما في جسمها من خلاصات ، وتمتصه لتحيا به وتنمو وهي دائمــة الأكلان لجدار الرحم ، دائمة الامتصاص لمادة الحياة ، والام المسكينة تأكل وتشرب وتهضم وتمتص لتصب هذا كله دما نقيا غنيا لهذه البويضة الشرهــة النهمة الأكــول .

« وفي فترة تكوين عظام الجنين يشتد امتصاصه للجير من دم الام فتفتقــر إلى الجير ، ذلك انها تعطي محلول عظامها في الدم ، ليقوم به هيكل هذا الصغير ، وهذا كله قليل من كثــير .

« ثم الوضع وهو عملية شاقة ، ممزقة ، ولكن آلامها الهائلة كلها لا تقف في وجه الفطرة ، ولا تنسى الام حلاوة الثمرة ، ثمرة تلبية الفطرة ، ومنح الحياة نبتة جديدة تفيض وتمتد ، بينما هي تذوي وتموت .

« ثم الرضاع والرعاية ، حيث تعطي الام عصارة لحمها وعظمها في اللبن ، وعصارة قلبها واعصابها في الرعاية ، وهي مع هذا وذلك فرحة سعيدة رحيمة ودود . لا تمل ابدا ، ولا تراها كارهة لتعب هذا الوليد ، وأكبر ما تتطلع إليه من جزاء أن تراه يسلم وينمو ، فهذا هو جزاؤها الحبيب الوحيد » .

ولقد تكررت وصية القرآن للأبناء ببر الآباء ، لأن الوالدين قدما كل شيء ، كالنبتة التي ينمو بها النبات فإذا هي قشة ، وكالبيضة التي ينمو منها الكتكوت فإذا هي قشرة .

ومن الواجب رد الجميل والعرفان بالفضل لأهله ، وان يحسن الانسان إلى اصله وان يدعو لهما ، وهو نوع من تكافل الأجيال . قال تعالى : **(ووصينــا**

الانسان بوالديه إحسانا حملته أمه كرها ووضعته كرها وحمله وفصاله ثلاثون شهرا حتى إذا بلغ اشده وبلغ أربعين سنة قال رب أوزعني أن اشكر نعمتك التي أنعمت علي وعلى والدي وأن أعمل صالحا ترضاه وأصلح لي في ذريتي إني تبت إليك وإني من المسلمين) الأحقاف / ١٥ .

وهذا النموذج الذي نشاهده في الآية ، نموذج للفطرة المستقيمة التي ترعى أصلها وتتعهد ذريتها ، وهذا النموذج يقبل الله عمله ويحشره فى أصحاب الجنة .

أما النموذج الثاني : فهو نموذج الانحراف والفسوق والضلال ، نموذج ولد عاق يجحد معروف والديه ، وينكر البعث والجزاء ويقول : **(ما هذا إلا أساطير الأولين)** الاحقاف / ١٧ .

وهذا النموذج جدير بالخسران ، لقد خسر اليقين والأيمان في الدنيا ثم خسر النعيم والرضوان في الآخرة .

وينتهي هذا المقطع من السورة ، بعرض هذين النموذجين ، ومصيرهما في النهاية ، ثم يعرض مشهدا من مشاهد القيامة حيث يعرض المتكبرون على النار وفي ذلك المشهد ، نرى الغائب شاهدا ماثلا ، يستحث النفوس على الهدى ، ويستجيش الفطر السليمة القوية ، لارتياد الطريق الواصل المأمون .

٣ ـ قصة عاد

يتناول المقطع الثالث من السورة قصة عاد وهم قوم نبي الله هود ، ويشمل الآيات من ٢٠ ـ ٢٨ .

والقصة هنا تخدم الفكرة وتؤيدها ، فقد أنكر اهل مكة رسالة النبي محمد ، وأعرضوا عن دعوته . فجاء هذا المقطع يذكرهم بأشباههم ، وينذرهم أن يصيبهم ما أصاب السابقين :
عليه السلام ، دعا قومه إلى التوحيد ، وحذرهم من عذاب الله .

(واذكر أخا عاد إذ أنذر قومه بالأحقاف) الأحقاف / ٢١ . وأخو عاد هو هود والأحقاف جمع حقف ، وهو الكثيب المرتفع من الرمال ، وقد كانت منازل عاد على المرتفعات المتفرقة في جنوب الجزيرة ـ يقال فى حضرموت .

وقد أنذر أخو عاد قومه ، ودعاهم إلى عبادة الله وحده ، وحذرهم بطشه وانتقامه . ولم تؤمن عاد برسالة هود ، وقابلت دعوته بسوء الظن ، وعدم الفهم ، والتحدي والاستهزاء ، واستعجال العذاب الذي ينذرهم به ، فلما راوا العذاب في صوره سحابة ، ظنوه مطرا مفيدا لهم :

(فلما رأوه عارضا مستقبل أوديتهم قالوا هذا عارض ممطرنا بل هو ما استعجلتم به ريح فيها عذاب أليم . تدمر كل شيء بأمر ربها فأصبحوا لايرى إلا مساكنهم كذلك نجزي القوم المجرمين) الأحقاف / ٢٤ و ٢٥ .

وتقول الروايات : إنه أصاب القوم حر شديد ، واحتبس عنهم المطر ، ودخن الجو حولهم من الحر والجفاف ، ثم ساق الله إليهم سحابة ففرحوا بها فرحا

شديدا ، وخرجوا يستقبلونها في الاودية ، وهم يحسبون فيها الماء: **(قالوا هذا عارض ممطرنا)** . وجاءهم الرد بلسان الواقع **(بل هو ما استعجلتم به ريح فيها عذاب اليم . تدمر كل شيء بأمر ربها)** .. وهي الريح الصرصر العاتية التي ذكرت في سورة اخرى كما جاء في صفتها : **(ما تذر من شيء أتت عليه إلا جعلته كالرميم)** الذاريات / ٤٢ .

لقد اندفعت الريح تحقق امر الله ، وتدمر كل شيء بأمر الله ، فهلك القوم بجميع ما يملكون ، من انعام ومتاع واشياء ، وبقيت مساكنهم خاوية خالية موحشة ، لا ديار فيها ولا نافخ نار .

ويلتفت السياق إلى أهل مكة يلمس قلوبهم ، ويحرك وجدانهم ، ويذكرهم بأن الهالكين كانوا اكثر منهم تمكنا فى الأرض ، وأكثر مالا ومتاعا وقوة وعلما . فلم تغن عنهم قدرتهم ولا قوتهم ، ولم يغن عنهم ثراؤهم . ولم ينتفعوا بسمعهم وابصارهم وافئدتهم ، بل اغلقوا قلوبهم عن سماع الحق ، ولم تغن عنهم آلهتهم التي اتخذوها تقربا إلى الله .

وكذلك يقف المشركون في مكة امام مصارع أسلافهم من امثالهم ، فيقفهم أمام مصيرهم هم انفسهم ، ثم أمام الخط الثابت المطرد المتصل . خط الرسالة القائمة على اصلها الواحد الذي لا يتغير ، وخط السنة الالهية التي لا تتحول ولا تتبدل وتبدو شجرة العقيدة عميقة الجذور ، ممتدة الفروع ، ضاربة في أعماق الزمان ، واحدة على اختلاف القرون واختلاف المكان .

لقد أهلك الله القرى التي كذبت رسلها في الجزيرة ، كعاد بالاحقاف في جنوب الجزيرة ، وثمود بالحجر في شمالها ، وسبأ وكانوا باليمن ، ومدين وكانت في طريقهم إلى الشام ، وكذلك قرى قوم لوط ، وكانوا يمرون بها فى رحلة الصيف الى الشمال .

وقد نوع الله في آياته لعل المكذبين يرجعون إلى ربهم ، ويثوبون إلى رشدهم . قال تعالى : **(ولقد اهلكنا ما حولكم من القرى وصرفنا الآيات لعلهم يرجعون)** الاحقاف / ٢٧ .

٤ ــ إيمان الجن

يتناول المقطع الرابع الحديث عن إيمان الجن ، ويشمل الايات الآخيرة من سورة الاحقاف .

وقد تحدث القرآن عن الجن ، فذكر أن أصلهم من نار ، وأن منهم الصالحون ومنهم الظالمون ، وأن لهم تجمعات معينة ، تشبه تجمعات البشر ، في قبائل واجناس ، وأن لهم قدرة على الحياة على هذا الكوكب الارضي ، ولهم قدرة على الحياة خارج هذا الكوكب . وللجن قدرة على التأثير في إدراك البشر ، والايعاز بالشر . قال تعالى : **(قل أعوذ برب الناس . ملك الناس . إله الناس . من شر الوسواس الخناس . الذي يوسوس في صدور الناس . من الجنة والناس)** سورة الناس. ومن خصائص الجن : أن يرى الناس ولا يراه الناس ، لقوله تعالى عن

ابليس وهو من الجن : ﴿ **إنه يراكم هو وقبيلة من حيث لا ترونهم** ﴾ الأعراف / ٢٧ .

وقد تحدثت الآيات الأخيرة من السورة ، عن إيمان الجن الذين استمعوا لهذا القرآن ، فتنادوا بالانصات ، واطمأنت قلوبهم إلى الإيمان ، وانصرفوا إلى قومهم منذرين ، يدعونهم إلى الله ،ويبشرونهم بالغفران والنجاة ، ويحذرونهم الاعراض والضـــلال .

وهذا الأمر في ظاهره الخبر عن إيمان الجن ، ومع ذلك فهو يصور اثر هـــذا القرآن فى القلوب ، فعندما سمعت الجن تلاوة القرآن قالوا انصتوا ، وعندما تأثرت قلوبهم انطلقوا الى قومهم ، يتحدثون عن القرآن ، والأيمان ، ويعرضون دعوة الأسلام على قومهم ، وبفضل القرآن صاروا دعاة هداة ، ملك القرآن عليهم نفوسهم ، فانطلقوا يحملون الهداية والرحمة لقومهم ، ثم يتحدثون عن الصلة الوثيقة بين القرآن والتوراة ، وبين محمد وموسى ، فالجميع من عند الله لهداية خلق الله :

﴿ **قالوا يا قومنا إنا سمعنا كتابا انزل من بعد موسى مصدقا لما بين يديـــه يهدي إلى الحق وإلى طريق مستقيم** ﴾ الاحقاف / ٣٠ .

وهذا القول من الجن يفيد ما بين الرسل جميعا من أصرة الأخوة ، فربهم واحد ، ودعوتهم واحدة ، وفكرتهم اساسها هداية الناس ، ومحاربة الرذائل ، والتعاون على الخير والمعروف . والعداء بين الاديان إنما جاء من سوء الفهم أو من تحريف الأنسان للوحي .

كذلك ورد على لسان الجن إشارة إلى كتاب الكون المفتوح ، ودلالته على قدرة الله الظاهرة في خلق السموات والأرض ، الشاهدة لقدرته على الاحياء والبعث ، وهي القضية التي يجادل فيها البشر وبها يجحدون .

وبمناسبة البعث يعرض السياق مشهدا من مشاهد القيامة ، يبدو فيه الكفار وهم يعترفون بالايمان ، بعد أن كانوا ينكرونه في الدنيا ، ثم يقـــال لهم : ﴿ .. **فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون** ﴾ الاحقاف / ٣٤ .

وفي ختام السورة توجيه لرسول الله بالصبر والمصابرة ، فانها طريق الرسل وما ينبغي للدعاة الا الصبر والاحتمال .

مقصود السورة إجمـــالا

ذكر الفيروزبادي أن معظم مقصود سورة الاحقاف هو :

« إلزام الحجة على عبادة الاصنام ، والاخبار عن تناقض كلام المتكبرين ، وبيان نبوة سيد المرسلين ، وتأكيد ذلك بحديث موسى ، والوصية بتعظيـــم الوالدين ، وتهديد المتنعمين والمترفين ، والاشادة بإهلاك عاد العادين ، والأشارة إلى الدعوة وإسلام الجنين ، وإتيان يوم القيامة فجأة » واستقلال لبث اللابثين في قوله : ﴿ **فاصبر كما صبر أولو العزم من الرسل ولا تستعجل لهم كأنهم يوم يرون ما يوعدون لم يلبثوا إلا ساعة من نهار بلاغ فهل يهلك إلا القوم الفاسقون** ﴾ الاحقاف / ٣٥ .